كنا فى اوائل ليلة من ليالى الصيف عندما قدمنى احد الاصدقاء الى السيدة « ف » وهى جالسة فى فندق «تيجرس» ببغداد .

كان منظر هذه السيدة الوطنية السافرة فى بلد محجب فى شرفة فندق عام كمنظر الزهرة النابتة فى سفح جبل ...

وليس من اجل هذا فقط كانت مهبط الابصار فى مجلسها المنعزل ولكن كذلك من اجل شعرها الفاحم الغوير وهذه الثياب السوداء المترفه التى اسدلت على جسمها النحيل ، وهذا الشحوب الذى شاع فى وجهها الضامر الحزين كأنه ترجمان لقصه شجن مكتوم ، وبلاحص من اجل عيونها الفاتنة الشاخصة بلا تململ ولا سأم الى صفحة نهر دجله كأنما هى ترعى موجة الهادىء الكليل

وثارت فى نفسى على طول مرآها لهفة القصاص ، فلم اكد ارى السيدة تفيق من غيبوبتها لحالمه وترد على تحية صديقى بابتسامة ، حتى قلت اتعرف هذه السيدة ؟

قال نعم .

قلت : من هى ؟ ومن اين ؟ . وما هذه العزلة الغامضة التى تدفن نفسها فيها ؟

كان ثوبها مشقوقا على ذراعيها وبين العنق والنهـدين عن كوى
يطل منها جسدها العاجى

عب صديقي كأسه وقال: انها امرأة من غير هذه الدنيا ، انها طيف فر من القمر ان الله اعطاها من كل شيء : الثروة والجاه وفتنة الحور، وصوت البلبل ،وسذاجة اشد من سذاجة الطفل ، واحساسا ارق من احساس الشاعر الاعمى ، ثم سلبها نعمة واحدة كانت خليقة ان تصل بها مع كل هذه المواهب الى عرش، نعمة الانس بالرجال !

انحدرت من اسرة اسرائيلية وعندما مات الاب وهي طفلة رفض الحاخام لسبب ما ان يسمح بدفن رفاته في مقابر اليهود وتركته الام كالمجنونة تلطم وتجدف وتنتحب فصادفت في طريقها مدافن المسلمين فصاحت بالحارس صارخة : ـ

ـ اعلى قبوركم انتم ايضا اقفال ؟

ولم يفهم الحارس لاول وهلة ماتريد

فقالت : ـ اترفضون ايواء ميت من موتاكم في هذه المقابر !

فقال الحارس :

هذه ارض الله فكيف تضيق عبد من عباده ؟

قالت ـ حتى ولو كان مذنبا؟

قل ـ ان الله يغفر الذنب ويقبل التوبة ؟

قالت ـ حتى لو كان من غير دينكم ؟

قال ـ حتى لو كان وثنيا . . ان الدين لله والروح يتولاها سبحانه ، والتراب للتراب ،ودفنت الام فقيدها في مقابر المسلمين وعندما عادت اعلنت اسلامها واسلام ابنتها ، ومرت الايام ومات الام وشبت الصبية وتزوجت بلا اكتراث من اول مسلم عرض عليها الزواج

كان لزوجها هذا جشع اللص ، وقلب البغي ، وعقل الحمار ، فكرهت من اجله المسلمين كما كرهت من قبلهم اليهود من اجل ذكرى الاب المدفون في القبر الغريب . وعاشت بين هؤلاء وهؤلاء ،ترقص على السلم وتحجل

كالغراب ، لاهى تمشى كمايمشى العصفور ولا هى تختال كما يختال الطاووس . قصتها فى زواجها قصة امرأة معذبة . محرومة من عزاء الايمان بالله ، ومن راحة الطمأنينة الى كنف الرجل المحبوب

وانفسخت هذه الزيجة على طلاق . وعاشت السيدة ف .. ارملة .. ارملة حزينة فى عنفوان الشباب . عاشت بلا اهل ، ولا اصدقاء لان الدرس القاسى الذى تلقته عن زوجها علمها ان تكفر فى قرارة قلبها بعواطف الرجال

عاشت وحيدة تستقبل فى قصرها ، القلائل من ضيوف المصادفة تختارهم بمقياس عجيب ، وتحتقر مايقول الناس وما اكثر مايقولون

لم ير فى بيتها يوما شاب غنى جميل ، لان هذه الصفات كانت من صفات الزوج البغيض

وتكاد تختنق اذا حدثها محدث من ضيوفها عن الحب او الدين أو الماضى أو وجهها الجميل أونظر اليها نظرة الطامع فى جسد أو مال .

ومع ذلك — وهذا اغرب ما فى امرها — كان حديثها المفضل دائما حديث الشعر والادب والغناء وما فى الكون من جمال . فان اخرجت على غير هذا صمتت صمت الملول . وان دفعت الى مياهها الخطرة استحالت سذاجتها الى شموس هرة تتحفز للنضال

يقول كثير من الناس انها امرأة متكلفة ويقول آخرون انها تعيش فى ذكرى غرام ، ولاتعدم من شانئيها من يصفها بانها مخلوق شاذ نصفه رجل ونصفه امرأة .. ايهم اصدق انى لا ادرى ، والله وحده يعلم ..

* * *

قدمنى صديقى الى السيدة « ف » على انى شاعر مثله .

ومصرى غريب يريد ان يعرف شيئا عن اهل الديار . وفى اثناء تحية التعارف المعتادة كنت أحس ان نظره عينها الفاحصة تنفذ فى جسمى نفاذ الشعاع الكهربائى المجهول . فأشعر أن جسدى قد تعرى من كل مايكسوه واصبحت امامها هيكلا من العظم منضما على نفس وروح . وبدالى من شبح ابتسامة ومضت بين شفتيها ، اننى تلميذ نجح فى متحان ..

ودعتنا السيدة ف .. الى العشاء .

خيل الى وانا ادخل بينهاانى مقبل على كهف .. كأن بيتها قائم وراء باب ضخم من شجر السنديان . فى زقاق صغير تتلاقى الشرفات المهدمة على جانبيه كأنها طلال بغداد القديمه تبكى على عصر الرشيد . ووهمت فى الظلمة انى ارى حبلا باليا يتدلى من احدى هذه لشرفات بزمبيل ممزق يسأل الغادين والرائحين عن ابى نواس، — اين ؟ ولم اطال الوى هذا العاشق اسمالى ؟ فلا يجيب منهم مجيب

ويالله من هذا الكهف ، ياللهمن هذا القصر النائم فى احضان دجلة مزملا بثوب ممزق من هذه الاطلال

ياالله من هذا الترف والسرف الذى تركتنا السيدة فيه لتبدل ثيابها وتعود

هذه الارائك . وهذه الحشايا . وهذه السجف من المخمل الازرق منمنمة بوشى الحرير . هذه الاصداف لمرمرية تتفتح كل منها على تمثال امرأة نائمة ، يشع من صدرها العارى نور ضئيل مختلف الالوان

وهذا الطنف العالى يطل على مياه دجلة فى ضوء القمر الطالع، وعلى مبانى الكوخ فى الضفة لاخرى موشية من نوره الخافت يمثل غلالة الحلم البهيج

وامرأة .. امرأة جميلة فاتنة، تعيش فى هذا الوطن الساحر بلا رجل .

تناولنا العشاء . واستأذن صديقى لموعد واستأذنت معه ، فضحكت وقالت اتخشانى ؟

قلت — كلا . ولكن ..

قالت — ولكنك شرقى مسلم متهيب ان يقول الناس عنك انك آنست ساعة وحشة امرأة !

كنت محرجا فى الواقع ، فتركت صديقى يخرج ، وقابلت هذه الدعوة الجريئة بامتنان .

ولبثنا زمنا نتحدث عن الهرم وابى الهول وعن نخيل الجزيرة ، ومائة شىء وشىء على ضفاف دجلة مقارنة بمثلها على ضفاف النيل حتى سألتنى فجاة وهى تقوم الى الشرفة : —

— كيف ترى قمر بغداد ؟

قمر بغداد . . !

كأنى بالملائكة صبوا كل مافى الجنة من عصير البنفسج فى سماء بغداد . أن الذى لم ير قمر بغداد فى ليلة من ليالى الصيف . عائما فى هذا البحر القدسى الازرق لم ير القمر !

شخصت الى السماء اتطلع الى القمر كالحائر المشدوه . واحتسيت كأسى ولم أقل شيئا . . وأحسست أن كل ما أستطيع أن أقول لن يعدو فى هذه الاذن أن يكون زندقة مرفوعة الى عرش القمر !

وبدا لى من عينها أن صمتى كان أبلغ فى اذنها من كل ماأردت أن أقول .

ومضت هى تقول : —

— انى أحب قمر بغداد ، وأحب أن أشعر به يغمرنى وأنا راقدة فى السرير . لقد عبدت الهين ولكنى لم أخلص لغير القمر !

كانت تتحدث بصوت حالم ، وكان ثوبها الابيض الموسى بالبنفسج — ويالله من هذا البنفسج الذى غمر كل شىء حتى أحلامى فى هذا المساء — كان ثوبها مشقوقا على ذراعيها وبين العنق والنهدين ،

مشـــقوقا عن كـــوى يطل منهـــا جسدها العاجى ، يلهب الدم فى عروق الشيخ ويبعث الروح فى رفات الميت البالى ..

لقـــد كانت تتحـــدث وتأكل وتشرب ، وتطارح الشعر ، وتغنى على العود ، وتجلس على هـــذا المقعد ، أو تتمدد عـــلى هـــذه الاريكة كأنها فى كل عمل تعمله وكل قـــول تقوله شـــاعر يؤلف قصيدة ، يستلهم معناها من وجه القمر !

لاتكلف ولا حرج ، وكأن هذا الجالس معهـــا صديق العمـــر ، كأنه ليس غريبا عرفته منذ ساعة ، وليست امرأة منفردة برجـــل ، وفى هذا الحيز المحدود المثـــير المـــر بأجمل ذكريات الرشيد .

كان صوتها وهى تحتضن العود وتغنى لنفسها وللقمـــر حزينا كوجهها الشاحب الحزين :

يانار حيـــل اضرمى واشعلينا ومن حكى النميمة وينس علينا

عسى لأطال عمر الواشى علينـــا فرق روحين كـــانت سوية !

ولقد فعلت النار ، وأججتهـــا نشوة الكاس ، وخيل لى أنهـــا روح تنادينى من بعيد ، روح تبكى وهاهى ذى دموعها تسيل .

وعميت عينى وروحى عن كل شىء ألا عن هذه المرأة الممددة ، وهذه الكوى المفتوحة فى ثوبهـــا المزركش ، يتقبل شعاع القمر منها هـــذا الجسد المغرى النـــاعم ، الطرير

وكأنى بروح المتنبى تتقمص احدى الدمى المتجردة فى أصدافها المرمرية وتغنينى ساخرة

أســـخرة أنا مالى لاتحركنى هذى الكؤوس ولا تلك الاغاريد

والقمر .. وآه من قمر بغداد ! خيل لى أن وجه القمر يهمس فى أذنى شعاعه الفضى الهادىء : ـ

ـ الست رجلا ! هـــذه امرأة امامك . . . امرأة فى ســـاعة ضعف . . . كن رجلا وتقدم . كن رجلا وأمسح دموعها بقبلة !

ـ امسح دموعها بقبلة !

ـ امسح دموعها بقبلة !

وأطعت نداء القمر . .

* * *

لو كانت جثة لما تقبلت بأبرد من هذه الحورية الممددة قبلتي التي أودعتها قلبا يتلظى بالسعير!

أنها لم تقاوم ، ولم تستجب، ولم تصنع شيئا أكثر من أن جلست في مقعدها متراخية وزمت ما بين حاجبيها، وقالت في صوت هادىء خافت . . . صوت قاض رقيق ينطق بحكم اعدام ! !

ـ أهكذا أنت ؟ . . . أهكذا تورد الابل يا شاعر ؟ !

اليك عني ولا تعد . . انك دنست هيكل القمر . وانسللت الى قلبي بوجهك القبيح ولسانك الحلو كما ينسل الثعبان .

وخرجت من جنتي أعض أناملي نادما كما خرج آدم من جنته . .

خرجت منها ولكن بلا حواء .

وويلي من القمر . .

وويلي من همس القمر في سماء بغداد ! !

ابى :-

استطيع اليوم ، وبعد جهاد عنيف ان ازف اليك بشرى توفيقى فى المهمة التى اخترتنى لها وهى انقاذ أخى من الهوة التى كان يحفرها بيديه لمستقبله ، وبالتالى الآمال الضخمة التى علقتها عليه ، ومن اليوم تستطيع ان تطمئن على ولدك ، وتستطيع ابنة عمى ان تطمئن على خطيبها ، ونستطيع جميعا ان ننام لاول مرة بعد ثلاثة أشهر نوم الرضى والهدوء

لم اشأ يوم جئت القاهرة ان واجه أخى بسخطك ولعناتك وبراءتك منه الى يوم القيامة ، ان اقدم على الزواج من هذه المرأة التى تعدها امرأة لكل الرجال ان الثوره والغضب لا يحلان مشكلا وقد كنت قمينا ان فعلت ان احطم قلبه الغرير ، وقد كان من المؤكد ان اخرج من المعركة خاسرا ان دفع الطيش اخى الى العناد ، ودفعه العناد الى الجماح ، والجواد الجامح لا يعبأ بشىء فى الطريق .

سامحنى اذن يا ابى ان كنت كذبت عليك فزعمت لأخى انك لا تمانع فى ان يتزوج من يشاء ، على أن يكون عزمه مبنيا على مبررات حقيقية وقوية ، لا على شهوة عابرة تطفىء حماستها اول تجربة من تجارب الحياة ، وعلى ان تكون المرأة التى يختارها جديرة بان تعاشرها أمه تحت سقف بيت واحد بلا خجل ولا عار . ان الغاية

تبرر الواسطة وقد كانت هذه الواسطة هي الضمان الوحيد لاكتساب ثقة اخي ، ولطرد نوازع الطيش والعناد والرعونة من نفسه وتركه يقرر مصيره في ضوء العقل والحكمة ، وأمالي الواقع لا أمالي الهوى والخيال

ولو انك يا ابي رأيت شراهة المسكين وفرحه ، وهو يلتقم هذا الطعم لالتمست لي الف معذرة من هذا الكذب الصريح ، فقد بدا لي كمحارب غر ، لم يكد يرى رايه السلام حتى القى سلاحه ، واندفع الى الصدر المفتوح امامه بنزق الطفل ، يشكو ويعترف ويطلب العون بعينه الدامعة ولسانه المحرر من اغلال الوحدة والخجل والخوف وانعدام النصير .

مسكين اخي حقيقة ، لقد واجهته القاهرة الفاتنة بحلف من مفرياتها لا يغلب .. خضراء الدمن ، ورفقة السوء .

كان ظامئا فشرب ، ساذجا فاندفع ، اعزل فاجتاحه العدو المغير .

انها فتاة قادمة من الجزائر ، تشتغل في مرقص ، لها عينا خذت سوادها وصفاءها عن ليل الصحراء ، وسرقت تقلبها وفتنتها من رمالها ؛ عين تأمر فتطاع ، وفم يدعو فيجاب ، وسطوع كسطوع النجم ؛ وروح تتبارى مع جسمها في السحر والاغراء !!

ان ابنه عمي جميلة حقيقة ووديعة وطيبة ، ولكنها ـ ومغفرة يا ابي ـ تبدو امام هذه الفتاة كدمية من طين !

ولقد غفرت لها منذ رأيتها كل شيء الا ان تقف وقفة الساحر الشرير بين اخي ومستقبله ، والان تجعل منه قاتلا للفتاة البريئة التي مد لها في حبل الامل حتى اصبح كل شيء لها في الوجود

انني لا ادري ماذا كنت افعل و أحب اخي هذه المرأة ، عن علم بها وخبرة بحياتها ، وثقة في حبها ووفائها ، ولعل أقله كان أن انفض

يدى من امره وامرها ، واتركه حرا يفعل ما يشاء ، ولكن المسكين وهذا ما حز فى قلبى ، واقع تحت سلطان وهم عجيب ، انها — على رغم البيئة التى تعيش فيها — تمثال للشرف والطهر والعفاف!

وقد كان على ان ابرهن لاخى انها ان امتازت على زميلاتها جمالا او فتنة فى هذه الدنيا المشبوهة فهى لا تعدو ان تكون احداهن من حيث الاتجار بالعرض والمساومة عليه مع اول المشترين .

على ان هذا البرهان لم يكن يسيرا ، كما قدرت ، فقد كانت الفتاة مقلة فى اصدقائها ، قليلة البذل ، عصبية ، متكبرة ، تنظر الى الدنيا التى حولها باحتقار ، ففشلت فى البداية فى وضع اصبع اخى على جثة الخنزير المسجى تحت هذا القريح المزركش بالمرمر المصقول .

ولكننى لم اياس ، وتبعتها كالظل ، وبذلت لها عن سخاء ، وساعدنى الحظ ، ان كان اخى يستعد لامتحانه الاخير ، فاقنعته ان فشله فى الامتحان معناه كتاب احتقارها الابدى له بلا ثمن فانزوى فى البيت كارها يستعيد مافاته ، وكان بعده عن مجال المعركة ، وانشغاله فيما هو اجدى وانفع ، اول طليعة من طلائع الانتصار ، وفى النهاية اتصلت بها فهالنى منها انها لا تكاد تحس لاخى بوجود ، انها تكبره سنا وتجربه ، وتنظر له من حيث تنظر امراة محسنة الى طفل يتيم ، وقد كانت تستمع الى مشاريعه الزوجية على انها فكاهات يتحدث بها معها عندما لا تجد للحديث مجالا سواها ، وتشغل نفسها بالاصغاء اليها عندما لا تجد شاغلا الا اياها .

ولما اخبرتها خبر الثورة التى كاد يشعل نارها بين اهله ، ضحكت حتى كادت من ضحكها تموت !

وارحمتاه للطفل المسكين ! !

لقد اضطررت اضطرارا عقب فراغه من الامتحان ان ادعه